تبعة الشعراء والكتاب

الحوادث المختلفة واستعداد الأمم الفكرى، لهما أثر عظيم فى سير البلاغة والأدب ومساعدتهما على الرقى. لأن ذلك أثر من آثار الاجتماع. وللكتاب أثر آخر فى الاجتماع، أو فى الرأى العام، ليس أقل من أثر الاجتماع فى البلاغة. وعلى ذلك نرى مقدار التبعة التى تقع على قواد الحركة الفكرية والنقاد الذين بيدهم زمام العقول. وما أشد هذه التبعة على الكاتب أو الشاعر، ولا سيما إذا كان فائق البراعة فى طريق الإفهام وفى الاستيلاء على نفوس القراء ومعرفة امتلاك الأفكار. فقد يكفى أن يصل الكاتب إلى درجة خاصة من البلاغة، ليتمكن من قيادة النفوس إلى ما يريد، وحملها على اعتقاد المعنى الذى قصد. مثل هذا الكاتب قد يكون خطراً عظيماً على الاجتماع، إذا كان فى آرائه شىء من الخطأ، أو فى مذهبه ما يخالف الإصلاح. كما أنه قد يصلح من النفوس ما لا تتمكن الحكومات بقوتها من إصلاحه ويساعد على تقويم الأخلاق، وعلى نشر الأفكار الصحيحة، وعلى ارتقاء المدنية، وعلى توضيح المسائل الاجتماعية الكبرى، وعلى استنارة العقول وتثقيفها. ولكن هذه القوة هى ما يخشى منه على الاجتماع، وهى ما تحمل كثيراً من الخلقيين على الخوف من أثرها لما فى عقول بعض الكتاب من الأفكار التى قد تؤثر فى نفوس القراء أثراً غير محمود، بواسطة براعة الكاتب فى جعل الصور التى يذكرها فى شعره أو قصته أمراً قبولا، وأجدر بالاقتداء فهذه البراعة نفسها كما أنها تدل على عبقرية الكاتب، تدعو إلى الخوف منه، فتكون من أكبر العيوب لديه. ولذلك ذم كثير من الخلقيين الشعر. وخافوا من أثره وحذروا منه.

وفى الحق أن جناية البلاغة على الأخلاق قد يكون خطرها عظيمًا. ولكن لابد من الفرق بين الفنون وتقويم الأخلاق. إذ ليس من غرض الفنون تقويم الأخلاق، لأنها تقصد إلى إظهار الجمال بأى شكل كان، وعلى أى طريقة كانت. وعلى كتب الأخلاق تقويم النفوس وتربيتها. وإلا لو أخذنا على البلاغات ما فيها من ضروب الغزل والمجون، لوجب أن نحذف منها نحو نصفها. وهل نجد الآن قصة أو رواية تمثيلية بدون أن يكون للحب فيها أثر كبير. ذلك لأن تحريك هذه العاطفة من أكبر الدواعى لحمل الناس على القراءة ودرس أفكار الكاتب وأغراض الكتابة. كما رأى ذلك ابن قتيبة فى مقدمة "الشعر والشعراء" إذ قال: "لأن النسيب قريب من النفوس، لا يطأ القلوب، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقًا منه بسبب، وضاربًا فيه بسهم حلال أو حرام".

يقول الفقهاء لا حياء فى الدين، ويلزم أن يقول الأدباء والكتاب والشعراء والفنيون لإحياء فى الفنون، كما يجب أن يقول العلماء لا حياء فى العلم. فإن الله تعالى خلق الإنسان، وخلق له أنواع الجمال يتمتع بها، وتوحى إليه الأفكار والخيالات ما قد يساعد على عبقريته. كما أنه خلق له الخير والشر، ووهب له عقلا يميز به الخبيث من الطيب، وترك له الحرية المطلقة فى اتباع الطريقين، وبين له سوء العاقبة وحسن المآب. فكما أن العلم والفلسفة يبحثان عن حقائق الأشياء بأى وسيلة، كذلك الفنون الجميلة، تبحث عن إظهار الجمال بأى وسيلة، وأى طريقة كانت، لأنها سر من أسرار الحياة، وسبب من أسباب ترقية العواطف والنفوس. إذ النفوس التى لا تعشق

الجمال ينقصها كثير من فهم الحياة، لأنها لا تدرك ما يحيط بها من جمال الكون الذى هو أبدع شىء فى الوجود.

لابد أن تكون الحياة ككتاب مفتوح أمام كل إنسان بما فيه من جمال وقبح وفضيلة ورذيلة. لأن الله تعالى خلقه لننظر إليه ونفهمه ونتدبر ما فيه ونتعظ به. فتبعة البلاغة راجعة إلى نفس الجمهور، وإلى القارئين أنفسهم. لأن القارئ كمتعلم يصرف وقته فى معلم كيميائى، ليفيد ويستفيد، وليقف على أسرار ما لديه، فإن استعمل المواد الكيميائية لقتل نفسه، فقد "جنت على نفسها براقش". والكاتب كالعالم يظهر نتيجة تجربته فى الحياة، وما رآه وفهمه، وعلى القارئ أن يستفيد ويميز بنفسه الضار والنافع[1] على أن كل كاتب له خيال خاص، وطريقة خاصة، وله أفكار خاصة تجد لها من القراء من يميل إليها بطبيعته. فكل نفس تقبل ما يوافقها وترغب فيما تميل إليه. فالقصة التى تعرض صورة من صور الحب، قد تضل نفوسًا، وقد تفتح على بعض الناس أبوابًا من الفجور لم يكونوا يعرفونها، كما أنها قد توحى إلى بعض النفوس حب الجمال، ورقة الشعور، وتهذيب العواطف. لأن الرجل الحساس، صاحب الشعور الرقيق، والنفس الشريفة، والأخلاق الكريمة، يهذبه الحب، ويرشده الغرام إلى الفضيلة. وكثيرًا ما كان الحب سببًا فى إصلاح النفوس. ولكن لكل إنسان استعدادًا خاصًا فى تصور الأشياء وفهمها. وعلى هذا الاستعداد تكون حظوته من السعادة والشقاء تقوده إليها نفسه، وترشده إليها فطرته. غير أنه لا يلزم قراءة هذه الكتب للعمل بما فيها،

(١) هذا رأينا وهو يخالف بعض الباحثين فى ذلك لأن منهم من يرى أن الغرض من البلاغة التهذيب والتعليم.

كما تقـرأ كتب الأخلاق وكتب الدين مـثلا، وإنما تقرأ لدراسة موضـوعاتها، ومعرفة ما بها من الآراء، وأسرار البلاغة والفصاحة.

فى قراءة الكتب عامـلان، عامل التأثير، وعامل الإفادة. والثـانى أكثر أثرًا وأبقى. فإن مـا يبقى فى نفس القـارئ من المعلومات التى اكـتسبـها من القراء أنفع وأثبت. أمـا التأثيرات والانفعـالات التى منشؤها العواطف فـإنها سرعان ما تزول. فالكاتب الذى يصف مجلسًا من مجالس الخمر، ليس عليه أدنى تبعـة إذا قام إنسان بعد قـراءة كلامه فشـرب كأسًا أو كأسيـن. كما أن الخلقى ليس فى قدرته أن يحمل الناس على اتبـاع ما يقول. ولذلك قيل "إنه من الواجب علينا بث النصـائح والإرشادات، ولكن ليس علينا حـمل الناس على العمل بها" ولو كان للبلاغة الأثر الذى يدعو إلى العمل بما فيها الكاتب كتب الأخلاق كافية فى إصلاح النفوس. فلماذا يكون وصف المجون سببًا فى فـساد الأخـلاق والاجـتمـاع؟ ولو صح حـذف كل مـا من شأنـه أن يفسـد الأخـلاق، أو يؤثر فيـها أثـرًا سيـئًا، لوجب عـلى الإنسان أن يضم أذنيـه، ويغمض عـينيه، حتى لا يرى ولا يسـمع نصف المخلوقات أو أكثـر، ولعمل على عدم فهم كثير من الأمور التى يراها كل يوم أمامه فى الحياة.

البلاغـة من غرضـها عـرض كل شىء، وعلى القارئ أن يحكم عـقله ويميز الخبيث من الطيب.

***